﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَي وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ٥٩﴾ [سورة مريم]

وحين نقرأ ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية .

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [سورة الأعراف]

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعاً نائماً. وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم فى هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : «مضجع قليلاً لترتاح» .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو فى حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. (٥) ﴾

[سورة التوبة]

ولم يقل : «قفوا» حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون فى طريق الهداية . إنما من غوى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون فى الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى له الوسواس ، ويشككنى فى الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم فى العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التى لا تضبطها ؛ ويأتى إليك بمهام الأشياء فى وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التى لم تكن تتذكرها ، ويأتى لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان فى مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو فى المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل فى هذه الحال؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾

فمعنى ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أى فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بفزع والتجاء إليه - سبحانه - فإنه - جل شأنه - ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًّا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معْركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دار أخرى سيُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه - سبحانه - عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله - جل شأنه - تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شىء سهل وهيّن وآخر صعب وشاق ويبلغنا - سبحانه - بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان - أيضاً - يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناسٍ كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقبل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقًّا فأَمِّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثا ومستجيرا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة .فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ « على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

﴿ .. وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

﴿ .. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء]

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى . وهنا يقول الحق :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقال له الحق من قبل :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه فى حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن . ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾ [سورة الأعراف]

وفى هذا اخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدَّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه - جل شأنه - قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

[سورة المؤمنون]

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾[سورة الأنبياء]

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذى امتنع عن طاعة أمر الآمر الأعلى بالسجود لآدم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هى جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هى جنة الآخرة، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة « جنة» ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى التى تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى .

مثال ذلك كلمة « الحج » فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شىء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنًى اصطلاحيًّا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلى ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصلى فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلى كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجِنّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجئ بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث فى آفاق مرادات الله حين يُعْلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة فى الأرض :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصي وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله فى الأرض خليفة . والذى كان يجب أن نسأل

عنه : مادام قد جعله الله خليفة فى الأرض فما الذى جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة فى « افعل » و« لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد فى المجتمع ، أما الذى لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و« لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ« افعل » و« لا تفعل » هى مقياس ضمان الصلاح فى الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوى ؛ فسيزين لك فى « افعل » ، و« لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلى . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو فى مجال « لا تفعل » فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة ؛ لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته فى الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظريًا ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألاّ يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و« لاتفعل » . وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجئ فى منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجئ فى منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة وهى بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شىء فيها ، ولكن لاتقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و« لا تقرب » هذا هو النهى . وأوضح سبحانه لآدم أن الذى سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذى ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شىء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فَكُلَا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ ولا تقربا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لا تقربا ﴾ لأن القِربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى : لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن مايؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال: ﴿ ولا تقربا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : «لا تعبدوا الأوثان» ، بل قال : «فاجتنبوا» ، والشأن فى «الخمر» أيضاً جاء بالاجتناب. لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد فى الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر. لكن الاجتناب يقتضى الا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد فى المكان الذى توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها.

﴿ .. ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظـالمين ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقا فى أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أى منكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، «فتكونا من الظالمين» أى تدخلا فى اطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة فى زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشد. وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة «وسوس» تدل على الهمس فى الإغواء ، ونعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس. لكن من يتكلم فى شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد، وكأن كل شر لابد أن يأتى همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء ،